مقدمة

من السمات البارزة في كتب تراثنا العربي والإسلامي أنها في كثير من الأحيان تتمثل لقارئها ككتاب دراما من النوع المثير والمشوق..بحيث يشعر هذا القارئ بحالة من الامتزاج والتعايش مع كثير من الوقائع والشخوص..

وفي ذات الوقت الذي يكون فيه القارئ مشغولا ومهموما بحاضره وقضاياه ،فإنه يصادف على صفحات هذا التراث ما يلقي بضوئه على الراهن، بحيث يكون هناك تواصلا وربما تداخلا بين ما كان وما هو كائن حتى الآن..

واسمح لي عزيزي القارئ أن أقدم لك في تلك السطور

عشرة نماذج لما أقصد ، مختارات من التراث وضعت لها عناوين حديثة أو عصرية ، ومع ذلك لا تشعر بأي انفصال أو تنافر بين العنوان العصري وبين المادة المختارة من التراث القديم ، بل ربما تجد فيها إجابة شافية كافية حول السؤال المهم : كيف يتداخل التراث مع الواقع ؟

١- عن الأسئلة التافهة التي تتكرر على الفضائيات الدينية:

سأل رجل عمرو بن قيس عن حصاة المسجد يجدها الإنسان في خفّه أو ثوبه أو جبهته ؟!

فقال له : ارم بها ! فقال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى ترد إلى المسجد .

فقال عمرو بن قيس: دعها تصيح حتى ينشق حلقها.

قال الرجل : أولها حلق ؟ قال : فمن أين تصيح إذن .

٢- عن الشعب والسلطة (الناس على دين ملوكهم)

ذكر ابن الأثير في مؤ لفه (الكامل في التاريخ): »كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع (القصور) والضياع ، فكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء .. وكان سليمان بن عبد الملك صاحب طعام ونكاح ،فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الطعام والنكاح..وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخبر: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن ؟وكم تصوم من الشهر؟

وهذا على نفس طريق ماورواه الطبري من قبل ابن الأثير: أنه لما حمل الجند إلى الفاروق عمر سيف كسرى وجواهره بعد هزيمته أمام جيش المسلمين ، فإن أمير المؤمنين قال : إن قوما أدوا هذا لذووا أمانة ..فعقب علي بن أبي طالب موجها كلامه إلى عمر: «عففت فعفت الرعية ولو رتعت لرتعوا».

وعلي هو القائل أيضا في سياق ذات الفكرة «الناس بأمرائهم، أشبه منهم بآبائهم»..

وهناك أقوال كثيرة مأثورة عكست ذات الفكرة ،أشهرها قول عثمان بن عفان «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

٣- ثمن اشتغال المثقفين في خدمة السلطة:

يقول أبو حامد الغزالي في (إحياء علوم الدين): «لا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم، والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، والتجمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء، في حضورهم ومغيبهم. فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا، وبالتردد في الخدمة ثانيا، وبالثناء والدعاء ثالثا، وبالمساعدة على أغراضه عند الاستعانة رابعا، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا، وبالتستر على ظلمه ومقابحه ومساوي أعماله سابعا، لم يُنعم عليه بدرهم واحد، ولو كان في فضل الشافعي»!

٤- الحاكم ومعاونوه:

– كان عمر بن الخطاب يرجح الأقوى من الرجال على القوي، فقد عزل عمر شرحبيل بن حسنة وعين بدله معاوية. فقال له شرحبيل: أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا إنك لكما أحب ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل. (تاريخ الطبري)

ومن أجمل ما أثر عن عمر في هذا المعنى قوله: » اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة».

– ويروى أنه قد قدم على عمر بن عبد العزيز رجل من أهل الثغور له سن وعقل, فسأله عم :كيف حال عمالنا؟

فأجاب الرجل على الفور: يا أمير المؤمنين إذا طابت العين عذبت الأنهار.

٥ - مبدأ الطاعة المشروطة:

– في خطبة الاستخلاف التي دشن بها أبو بكر استلام السلطة بعد النبي (ص): «.... أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ،فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»

– وكذلك في خلافة علي بن أبي طالب مثالا رائعا للتطبيق المتبادل لمبدأ الطاعة المشروطة من الخليفة والناس ففي (نهج البلاغة) نطالع له هذا النص الذي يوضح مدى المسؤولية المشتركة بين الحاكم والمحكوم :

«ليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه،ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته (احتقرته) العيون بدون أن يعين على ذلك»

ونقرأ له أيضا :

«لا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ منه عند أهل البادرة ،ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ،فإن من استثقل الحق أن يقال له والعدل أن يعرض عليه،كان العمل بهما أثقل عليه .فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست من نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي»

٦- نقد مبدأ الطاعة العمياء:

جاء في(سرح العيون) لابن نباته :»أن عبد الله بن معاوية من أحفاد أبي طالب وكان متمردا ، كان يقول لأهل خراسان منددا باتباعهم لأبي مسلم الخراساني القائد العسكري للدعوة العباسية: ليس في الأرض أحمق منكم يا أهل خراسان في طاعتكم لهذا الرجل قبل أن تراجعوه في شئ وتسألوه عنه .والله ما رضيت الملائكة بهذا من الله حتى راجعته في أمر آدم فقالت «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء».

٧- الحاكم وقصور الإستراحة:

– بعث عمرو بن العاص إلى الفاروق بقوله: إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع، فكتب إليه عمر:

أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر!..

أي كيف يعقل أن أكون مقيما في الحجاز وأتخذ لي استراحة في مصر.

وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين.

٨- تشجيع الناس على نقد الحكام بل وقتلهم :

في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ،كان عمر يقول «رحم الله امرءا أهدى إلينا عيوبنا»..

وفي تاريخ الطبري : قال عمر بن الخطاب:

لن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم فان استقام اتبعوه وإن جنف (انحرف) قتلوه.

فاعترض عليه احدهم قائلا: ما عليك لو قلت عزلوه؟

فقال عمر: لا، القتل أنكل لمن بعده.. أي أشد ردعا .

٩- مقاطعة السلطة:

– يقول سفيان الثوري «في جهنم وادي لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك»

– رد أحد القضاة شهادة رجل لأنه حضر مائدة السلطان.. فقال الرجل :كنت مكرها.. فرد القاضي :رأيتك تقصد الأطيب وتكبر اللقمة.

– وحكي أنه دنا سقاء من فقيه واقف بباب احد السلاطين، فسأله عن مسألة، فقال الفقيه :أهذا موضع السؤال؟ فرد السقاء بعبقرية: أوَهذا موضع الفقيه؟!

– ومن ديوان الإمام الشافعي :

إن الملوك بـــلاء حيثما حـلوا
فـــلا يكـــن لك في أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
فاستعنِ بالله عن أبوابهم كرما
إن الوقـــوف على أبـوابـهم ذل

١٠- الظلمة وأعوانهم:

– جـاء في (تنبيـه المغتريـن) للشـعراني أن سـفيان الثـوري قـال: «مـن تبسـم في وجـه ظـالم أو أخـذ مـن عطائـه فقـد نقـض عـرى الإسـلام وكتـب مـن جملـة أعـوان الظلمـة».

–وفي إحيـاء علـوم الديـن للغزالـي : سـأل عسـكري فقيهـا عـن الطريـق فسـكت الفقيـه وتصامـم .. والسـبب هـو خوفـه مـن أن يكـون متوجهـا إلى ارتـكاب ظلـم فيكـون بإرشـاده إلى الطريـق معينـا لـه علـى الظلـم.

– وحكـوا عـن الإمـام أحمـد أنـه حـين سـجن وعـذب فيمـا سمـي بمحنـة القـول بخلـق القـرآن سـأله سـجانه عـن الأحاديـث الـتي وردت في وعيـد أعـوان الظلمـة، فقـال: هـي صحيحـة.

فقال السجان: وهل تراني من أعوان الظلمة؟

قـال الإمـام: لا. أعـوان الظلمـة مـن يخيـط لهـم الثيـاب، أو يطهـو لهـم الطعـام، أو يقضـي لهـم الحاجـات، أمـا أنـت فمـن الظلمـة أنفسـهم.

– كان أحد الولاة يزور الإمام مالك بن انس في بيته ويسأله النصيحة..فأثنى بعض الحاضرين على ذلك الوالي ..فغضب مالك – وكان بعيد الغضب – وصاح في الوالي «إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك..فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك..أنت أعرف بنفسك منهم».

وإضافة إلى تلك القراءة للتراث التي تربط الماضي بالحاضر والقديم بالمعاصر ، يمكن للباحث المتخصص أو القارئ المحترف أن يقرأ في التراث أو يكتب لينتقد أو لينقض واقعة ما أو فكرة ما، أو ليثير إشكالية أو يعيد النظر في مسألة كان مسلما بصحتها ثم بانت أمارات وشواهد أخرى لتؤكد أنها أبعد ما تكون عن الصحة والصواب.

وكل ما سبق وإن كان يندرج تحت بند (الضروري) والمطلوب، خاصة إذا كنا ننشد لأمتنا نهضة وتقدما يقومان على احترام العقل و المنطق بالقدر الذي تعتز فيه بتراثها.

إلا أن هذا ليس وحده هو ما يمكن أن نتعامل به مع التراث..

فتراثنا أيضا ملئ بالصفحات التي يمكن أن نحصل من خلالها على حقائق موثقة ، ومعلومات مفيدة ، أو قصص ونوادر طريفة. بحيث تستطيع أن تقول أن بقدر ما فيه ما هو متعب ومحير للعقل، ففيه الكثير أيضا مما يمثل متعة للعقل وتنشيطا للفكر وإثارة للوجدان .

ومن هذا النوع الأخير، وفي هذا الكتاب الذي بين يديك نحاول تقديم نماذج من تراثنا، نرجو أن تصادف منك القبول وتحقق لك قدرا من التسلية والمتعة التي تضيف للعقل وتسعد القلب و الروح.

تلك النماذج هي في الحقيقة خلاصة قراءات كثيرة ومتنوعة عبر رحلة طويلة وممتدة في عشق وغواية التراث .. هي منتخبات ومختارات من كتب التاريخ ، وفي مقدمتها (تاريخ الأمم والملوك) للطبري ، و(الكامل في التاريخ) لإبن الأثير، و (البداية والنهاية) لإبن كثير ، و(تاريخ دمشق) لإبن عساكر.

و أيضا هي – في أغلبها – اختيارات من تلك الكتب ذات الطبيعة الموسوعية التي سادت في الأدب والتراث العربي ، مثل (العقد الفريد) لإبن عبدربه، (المستطرف من كل فن مستظرف) للإبشيهي ، و(عيون الأخبار) لإبن قتيبة ، و (الكشكول) لبهاء الدين العاملي ، و(نَكت الهميان في نُكت العميان) للصفدي، و(زهر الآداب) لأبي إسحاق القيرواني ،(أخبار الأذكياء) ، و(أخبار الحمقى والمغفلين) ، وأخبار الظراف والمتماجنين) وهؤلاء الثلاثة لإبن الجوزي ، و (البيان والتبيين) و (البخلاء) وكلاهما للجاحظ .

يتبقى في النهاية عزيزي القارئ أن أترك اختياراتي الشخصية بين يديك ، وإني أظنها تتحدث بنفسها عن نفسها ، داعيا وراجيا أن تلقى منك القبول الحسن ، فربما تجد فيها شيئا موحيا أو ملهما أو على الأقل مشوقا ، وربما تجد فيها ما لم أجد ، فكلنا في النهاية مجرد قراء.

حاتم صادق